الشكوى في الشعر الاندلسي من (٣٩٩ هـ - ٤٢٢هـ)(*)

أ. د. صالح علي حسين الجميلي
م. م. خلف محمود حسين
جامعة تكريت / كلية التربية

المقدمة

شغلت الشكوى مساحة واسعة في أدب المجتمع الأندلسي والذي أمسى ضحية للفتن والفوضى والاضطرابات الداخلية والخارجية، لذلك كانت سمة التشرد والضياع التي أصابت الشعراء الذين رفعوا لواء الشكوى معبرين عن تردي أوضاعهم وبوار سلعتهم، لخلو الساحة الأندلسية من أناس ينصفون الشعر والشعراء ويضعونه في مكانه المناسب، ولما كانت الشكوى عاطفة أساسها الشعور بالحرمان وهي تعكس أوجاع النفس من أشجانها وقنوطها وآلامها نتيجة التناقض والإحباط أو الضعف الذي واجه الإنسان أزاء قوة لا يقدر عليها أو يرى الظلم ولا يستطيع رده، لذلك وجدنا الشاعر عاجزاً للوصول إلى هدفه واشباع حاجاته.

مفهوم الشكوى

لما كانت الشكوى تمثل ظاهرة بارزة من آثار الفتنة في المجتمع الأندلسي، فلا بد من التعرف على مفهوم الشكوى لغوياً .

يقول ابن منظور في مادة شكا (الشكاية والشكية هي اظهار ما يصفك به غيرك من المكروه، والاشتكاء: أظهار ما بك من مكروه أو مرض أو نحوه واشتكيت فلاناً إذا فعلت به فعلاً أحوجه إلى ان يشكوك، والشكي أيضاً الموجع)(١). فإذن كانت الشكوى

(*) بحث مستل من رسالة الطالب خلف محمود حسين والموسومة (اثر الفتنة القرطبية في الشعر الاندلسي من (٣٩٩هـ – ٤٢٢هـ) باشراف أ. د.: صالح علي حسين الجميلي.

البديل الموضوعي لفكرة التوجع والألم. والشكوى هي (تأثر عاطفي يعكسه الشاعر بألفاظ رقيقة مشحونة بخلجات وجدانية، وانفعالات ذاتية، وتتنوع الشكوى تبعاً لتنوع هذا المؤثر، فقد يشكو الدهر وتقلباته، ويتبرم بالفقر والعوز ويندب الشباب ويأسف على غدر الاخوان وموت الوفاء)[٢]، فبدأت قلة حيلته ليجد متنفساً لمشاعر الحزن والضيق والسخط التي يحس بها فلم يكن أمام الشاعر إلا الالتجاء إلى الشكوى لأنها تخفف الهم وتزيل الألم[٣]، وحين يفصح الشاعر عن أحزانه ويشكو أساه يكون أصدق الناس تعبيراً عن الحقيقة النفسية لأنه يجسد حالات وجدانية ومعاناة حقيقية وعواطف صادقة كما أنه في خضم أنفعاله يصور مشاعره وهواجسه الإنسانية الحزينة بطريقة آنية بعيدة عن التصنع والافتعال، فلا بد من توافر صدق الوجدان في تجربته عند إفصاح ما يجده في نفسه ويؤمن به[٤] وليست شكوى الشعراء في الأندلس ذاتية فقط وإنما تترجم قتامه الظروف التي مروا بها، ولم يُعانوها وحدهم فحسب وإنما شملت المجتمع الأندلسي، لذلك جاءت نوازع الشعراء معبرة عن شكواهم الشخصية ورسمت في الشعر الملامح النفسية للشاعر الذي عكس بدوره قساوة البيئة التي أحاطت به هنا لا بد من التنويه إلى صدق العاطفة في الشكوى وقرب الشعراء من الموضوع الذي يعالجونه، وكثيراً ما يلحق التناقض والحيف والاحباط الذي يصيب المجتمع والشاعر نفسه فيدفعه إلى الشكوى التي تفجر معاناته الذاتية وأن أغلب شعر الشكوى جاء متوافقاً مع مطامح الشاعر وأمانيه، لذا عبر بصدق عن الألم والسخط من واقع المجتمع الذي أستلبت حريته وأمنه، وفي الوقت نفسه صورت واقعه السياسي المؤلم الذي يعوزه الانتفاض عليه وتغييره، ولذا سارت الشكوى في خط مستقيم مع الشعر السياسي[٥] فالإحساس بالظلم هو أحد تداعيات افتقاد العدالة ومحاولة الإصلاح، وهكذا ارتبط الواقع الحياتي المحيط بالأديب بمشاعره الخاصة فجاءت الشكوى لأن الشاعر (هو عملية متميزة بعض الشيء داخل عملية كبرى هي المجتمع)[٦]، وتجاوز الشاعر هذا المعنى للنفاذ إلى مكوناته إذ عكست النصوص الشعرية المفهوم السابق للشكوى الذي حرر وعيه الكامل لما جرى في مجتمعه من تغييرات خارجة عن القوانين الحياتية، لذا تبلور هذا الموقف سواءً كان سلباً أم إيجاباً ولا سيما وهو يرى تخبط البلاد في الفوضى العارمة التي أصابت المفاصل السياسية والاجتماعية والثقافية وهي

توصف أخيراً بأفرازات الفتنة، أن هذه الحالة المضطربة قد أصابت عدة مواقع من هيكلية المجتمع الأندلسي والتي تمثلت في :

١. الشكوى السياسية .

٢. الشكوى الاجتماعية.

٣. الشكوى الثقافية .

١. الشكوى السياسية

عاش الشعراء الأندلسيون في عصر الفتنة وظروفها الصعبة التي عكست مرارة الشكوى ومعاناتها، وهذا الشعور جزء لا يتجزأ من الشعور العام، لأنهم مرآة لواقع المجتمع، فجاءت الشكوى صورة معبرة عن أنفسهم وهي تتلظى بظلم الواقع السياسي أنذاك، لذلك اتخذ الشعراء من أنفسهم انموذجاً للتعبير بشعر شاكي عن واقعهم الأليم.

فاستغلوا السياسة منفذاً لعَرض حالتهم ومأساوية عيشهم وكثرة الحساد وكراهيتهم لهم[٧] وهكذا وجدنا جلَّ شعراء هذه الحقبة، ساءت ظروفهم مما أضطرهم إلى التجوال في مدن الأندلس مادحين أو متسكعين أو شاكين دهرهم، ونتيجة لتغير النظام بين الفينة والفينة كان لابد أن ينتج ألواناً من الأدب يظهر فيها التملق والخضوع كما يظهر الإسراف وتمجيد الحاكم. كما أن النظام القائم على الحرية ينتج ألواناً من الأدب تظهر فيه الصراحة واستقلال الرأي والاعتراف بالشخصية الإنسانية[٨].

ولما كان الشاعر صاحب موهبة فنية يذكيها طبع مرهف واستعداد فطري وذكاء ناقد نافذ وجدنا الشاعر مصوراً الحياة السياسية عصر ذاك بشتى صورها وتعدد أشكالها الجاد منها واللاهي، والرسمي منها والشعبي، فجاء الشعر مصوراً موضوعات متعددة حسب ما أملته الظروف[٩].

ولسنا هنا بمعرض الحديث عن الظروف الحافلة بالاحداث السياسية خلال حقبة الفتنة، إلا أن الذي يهمنا هو الحديث عن تداعيات الفتنة في الأدب ولاسيما الشعر، فأول من يطالعنا من الشعراء ابن دراج القسطلي (ت٤٢١هـ) الذي عاش الفتنة واصطلى بنيرانها، فجاء شعره مصوراً الأحداث فهو كثير الشكوى من حظه العاثر في أدب ضائع

أحاله أسيراً بين يدي ممدوحه ولا يرى خلاصاً إلا على يديه ويُساير شاعرنا تقلب الحكام السياسيين على قرطبة، فهو عندما يمدح ثورة(ابن عبد الجبار)[*] بقصيدة طويلة وفي آخرها يجهر بشكواه يقول :-

فَاغلبْ ولا تَزِلِ الخلافةُ والهدى ... من سعدِ جَدِك في سلاحٍ شاكِ
واشَرب بأكواس السرور وسَقِها ... رِفهاً مدى الأيَام هاتِ وَهاك
وأنا الشريد وظلَّ عزِك موئلي ... وأنا الأسيرُ وفي يديكَ فِكاكَي
أدبٌ اضاء المشرقَينْ وتحتَهُ ... حظٌ يَئنُّ إليك أنَّهُ شاكِ[١٠]

بعد أن يمدح شاعرنا الخليفة ويتعرض لصفاته من الشجاعة والعطاء يبدأ بشكوى حاله بأنه مشرد ولا مأوى عنده، فهو فقير بائس ويطلب العون والمساعدة عسى أن يمن الخليفة عليه بكرمه وجوده، ثم يصف حاله ويقول أنا كالأسير مقيد ومكبل ولا يفك قيدي إلا هذا الخليفة . وكلامه كناية عن الجوع والتشرد وأنه لا يملك شيئاً كحال الأسير الذي ينتظر الافراج وعسى ان تناله يد الخليفة بالعطاء، ثم يشكو ويعلن أن هذا الأدب الذي امتد إلى المشرقين ليس له قيمة عند أهل زمانه وأصبح سلعة بائرةٌ لا فائدة منهُ، فعسى أن يقيم الخليفة هذا الأدب ويهتم به.

هكذا كانت مشاعر ابن دراج تجاه أدبه ونفسه، يحمل أسى عائلته ويعيش همومهم إضافةً إلى همومه التي أثقلت كاهلهُ.

هذه ظروف شاعرنا الخطيرة التي تركت آثارها على حياته، فالترحال وعدم الاستقرار سمة لحياته حتى أنه لا يفتأ من الرحيل وأن توقف برهه، فليل حياته لا ينبلج صباحاً إذ أحاطت الهموم دائرة وجوده، فلا خلاص من المأساة،فالاستقرار حُلم وإن وقع فالرحيل هو سيد الموقف يقول :

فما فكَّت حُداءَ عن ركابي ... ولا كَفتْ يميناً من زمامي
فليس لنا إلى وَطَنٍ مَرَدٌ ... ولا في دارِ قومٍ من مُقامِ
ولا حلَّت بنا دارٌ فَزادَتْ ... على ذاتِ الحوافرِ والسَّنَامِ
مخاضٌ ما لمولدِه رَضَاعٌ ... وترحالٌ أمَرُّ من الفِطَامِ

وعامُ مُقامِنا عامٌ كيـومٍ ويومُ رحيلنا يومٌ كــعامِ
كيومِ الهمِ ليس بذي انتقاصٍ ويوم اللهو ليس بذي تَمـامِ[١١]

يؤكد الشاعر في هذه الأبيات أنه دائم الترحال ليس له وطن ولا دار ولا قوم يتعايش معهم، فحياته عبارة عن مخاض عسير كحال الطفل أول فطامه، وما به من شوق ولهفة إلى رضاعة أمهِ، والأم الحنون عند الشاعر هي قرطبة ذلك المكان المحبب الأليف وهو هاجسه الوحيد الذي يحن إليه لأن عاش فيه أيام عزه ومجده في ظل الدولة العامرية، ونجد لدى شاعرنا وقفة تأمل عندما يصور الترحال بأنه أمر من الفطام، فالرحيل من مكان إلى آخر أجهد الشاعر وحَمّلهُ الآم نفسية جسيمة لذلك نجده دائماً مهموماً، وأن وجدت فرصة للهو والراحة من الهموم فهي قليلة جداً في حياته. وليس هذا هو حال الشاعر وإنما أصبح حال أغلب أبناء ذلك المجتمع . وعندما ينظر الى الوراء ويستشعر حياته من خلال الفتنة وما لاقاه من شدة في تلك الايام، فلا يملك الا ان ينفث هذه الزفرة قائلاً :

ويا لك من ذكرى سَنَاءٍ ورِفــعةٍ إذا وضعوا في التُرْبِ أيْمَن جنبياً
وفَاحَتْ لَيَالي الدَّهْر مِّني مَيــتاً فأخَزيَن أياماً دُفنت بها حَـيَّا
وكان ضياعي حَسَرةً وتندمــاً إذا لَمْ يُفدْ شيئاً ولم يُغني شَـيَّا
وأصبَحت في دارِ الغِنى من ذوي الغنى وعوضتُ فأستقبلتُ أسعَدَ يَومِيَّا
سوى حسرتي عرض ووجهٍ تَضَعضعا لقارعةِ البلوى وكَان عَـتَاديًّا[١٢]

يتعجب شاعرنا من صروف الدهر وتقلب الأيام التي أحالت حياته إلى العدم والضياع، فهو يشكو الحسرة والندم، لأن البلوى صارت قريناً له أينما رحل، وابن دراج يصور حالة الآخرين في نفسه التي تصارعت فيها قوتان، أولهما طموحه الذي لا تحده الحدود، وثانيهما عاطفته الأسرية لأطفاله وزوجته، فهاتان القوتان صيرت فيه معاناة يدندن بها في كل قصائده، وربما تفرد بها في رصد أحاسيسه[١٣].

ولا يقل استغراب ابن شهُيد عن القسطلي في هذه الحالة الغريبة فكأنها أضغاث أحلام حين يتطاول أذناب الناس على ساداتهم حيث تنقلب المقاييس، فلا يُصدق الشاعر ما يرى حتى يبدو كأنه أصابه العمى، فجاء قوله :–

من فتنةٍ أُسْبِـلَـتْ ظُلُماتُها بَيدِ المَـظَـالِمْ
عَمَهتْ لها أَحْلاَمُـنا وكأَنَّهَا أَضْـغَاثُ حالِمْ
وتَضَاءَلَتْ أجْرامُـنا فيها بمُوبِقةِ الجَـرائِمْ
وتَحَوَّلَتْ فينا الـذُّنا بَي الرأْسَ، وابْنُ المجَـْدِ راغِمْ
وأَدارَ كُلُّ صِغيرِ قَدْ رٍ المُنْتَهَى أرْحِى العَظَائِـمْ
فكأَنَّنَّا عُميٌ نُسـا قُ على العَمَى في ظِلَّ عاتَمِـْ(١٤)

هذه القصيدة من أطول قصائد ابن شهيد في ديوانه حيث بلغت اثنين وثمانين بيتاً وجاءت بدايتها في مدح المؤتمن (ابن شنجول) وقد أصبح صاحب السلطة في بلنسية، ويشير فيها إلى مقتل شنجول (وابن الاعالي كيف صار ذليلاً) كما يشير إلى الفوضى السائدة حينذاك في قرطبة(١٥).

وشكوى الشاعر واضحة في هذه الأبيات من الفتنة التي لَفّتْ قرطبة بالظلم والمظالم، وتغيرت فيها أحوال الناس، وأصبح التشرد سمة ذلك العصر، وجاء الصدق الشعوري للشاعر من عمق تجربته الشعرية التي وصفت الفتنة.

ساعد تقلب الظروف السياسية التي شهدها العصر على بروز هذا اللون من الشعر لأنه يصور ما يقاسونه من الآلام والمعاناة بشعور صادق فياض، والشعراء تنتابهم مجموعة عواطف تقوى وتضعف حسب نفسيات كل واحد منهم، ومدى قسوة الظروف على وضع الشاعر من سجن وحَسد وتشرد، لذا تُعد شكوى السجن في أغلبها تصوير وانعكاس نفسي لحالة الشاعر. فمنهم من أرهقه السجن فألوى بصبره وتجلده. وكثيراً ما يكون هذا عند أولئك الذين كانوا على حظ كبير من المكانة السياسية قبل تقلب ظروفهم ويلقوا في غياهب السجون، فتظهر شكاواهم حقيقة تنم عن معاناة نفسية ممزوجة بعواطف الشوق إلى الأهل والأصدقاء مصاحبة لآلام القهر مع تطلع للخلاص ونيل الحرية(١٦)،

لقد حرّض أعداء الشاعر الخليفة (علي بن حمود) فسجن ابن شُهيد، ولم يكن الخليفة على أي حال بقادر على فهم شعر ابن شُهيد، كذلك اتخذ أعداء الشاعر مما اشتهر به من فجور وخفة وطيش أساساً لهجماتهم[١٧] ومن كل هذا وذاك جاء ابن شُهيد بهذه الأبيات شاكياً ظلمة السجن وظلمة الفتنة قائلاً :

قَريبٌ بمُحتَلَّ الهَوانِ بعيـدُ يجوُدُ ويَشكُوُ حُزنَهُ فيـجيدُ
نَعَى ضرَّه عِند الإمام فيـاله عدُوٌ لأَبْنَاءِ الكِرَامِ حسُـودُ
وما ضَرَّهُ إلاَّ مـزاحٌ ورِقَّةٌ ثَنَتَهُ سِفيه الذِّكْرِ وهْو رشِيدُ
فراقٌ وسجْنٌ واشْتـياقٌ وذلَّةٌ وجَّبارُ حُفّاظٍ عليّ عَتـيدُ
فمن مُبْلغُ الفِتيان أَنيَّ بعدْهُم مقُيمٌ بدارِ الظالِمِين طَـريدُ
مُقيمٌ بِدارٍ ساكنُوها مِن الأَذى قِيامٌ على جمْرِ الحِمَام قُـعودُ
ويُسْمعُ للجَّنانِ في جَنباتـها بسيطُ كَتَرجيعَ الصَّدَى ونَشيدُ
وما أهتزَّ باب السَّجنِ إلاَّ تَفَطَّرتْ قُلُوبَّ لنا خَوْف الرَّدى وكُبُودُ[١٨]

هذه القصيدة من أشهر قصائده عن تجاربه في السجن حيث عبرت عن أسى وحزن الشاعر وقلقه وتأثير الفتنة فيه، ويصف لنا حالته المأساوية من داخل زنزانتهِ المظلمة حيث لا يرى من النور شيئاً، ولكنه يسمع صدى الأصوات فحيناً يعرفها وحيناً لا يعرفها وهو مقيمٌ بذلك المكان المهين، ولكن هذه الإقامة كجالسٍ على بساط من الجمر حتى يكاد الردى أن يطويه كل لحظةٍ، ولاسيما عند سماعه اهتزاز باب السجن من قبل الحُفاظ المتجبرين.

وهذه شكوى لشاعرنا ابن حزم الإندلسي من الزمن الذي يجب أن يسود فيه المرء بحقه كما جاء في هذه الأبيات :

زَمَانٌ يَسُودُ فيهِ المرْءُ بحَـقهِ ولاَ كزَمَانٍ سَادَ فَيهِ القَلانَـسُ
زعيمُون أنْ يُقْضَي لَنَا دُون غَيْرنَا إذَا ازْدَحَمتْ عنْد المُلُوك القَلانَسُ
سَمَونا فَمَا في دَهْرِنَا غَيْرُ حَاسِدٍ وطَلْنَا فَلَم نْدُرَكْ فما ثَمَّ نَابِـس[١٩]

يرى الشاعر إن الأمور تسير على غير وضعها الطبيعي وإن الزمن الذي يعيش فيه الشاعر ساد فيه البخلاء واللؤماء الذين يعرفون كيف يصلون إلى غاياتهم، والشاعر لا يقف عند هذه الظاهرة بل يراها تنسحب على كل العصور وكان يتمنى دائماً للشعراء والمثقفون ان ينصفوا ولا يُبخس حقهم ومن خلال ما سبق يعبر شاعرنا عن إحساسه تجاه ماضيه الذي عاشه في قرطبة ومن خلال هذا التأمل لا يعني فقط البكاء على ماضيه بلي يعني البكاء على حاضره ومستقبله في ظل الفتنة وأهوالها فهو يعيش غربة قاسية وصراع مع الزمن وتزداد احزان الشاعر لما يعانيه من محن، فيرى أن الدهر لا يتمهل ولا يكف عن مطاردته كأن بينهما ثأراً، وعندما يدخل الشاعر في صراع يتداولان الغلبة مرة للشاعر، ومرة للدهر لهذا نرى في قصيدته الهم والحزن وذهب عنفوان شبابه في ظل أوضاع ظروف الفتنة.

٢. الشكوى الاجتماعية

عاش المجتمع الأندلسي ظروفاً مضطربة وقاسية، يشعر بالضياع ويتجرع المرارة يومياً في اثناء تلك الفتنة المهلكة، حيث كثُر تتابع الحكام من أمويين وبربر، وسادت الفوضى في تعطيل نشاط الحياة في الزراعة والصناعة والتجارة، وبالتالي ولدت الكوارث للشعب الأندلسي من مجاعة وأمراض وبطالة، فأخذ الأدباء يبحثون عن الراحة والأمان، وفرّ كثير منهم الى مدن الأندلس الأخرى يُمنون النفس بانقشاع الفتنة وعودة الحياة إلى وضعها الطبيعي، وعاشت مدينة قرطبة كل هذه التداعيات وأصحبت ساحة للصراع والحرب(٢٠).

ان ابن دراج القسطلي كان شاهداً على ذلك العصر، وعاش تلك الأحداث بتفاصيلها، ففي قصيدة له يتناول الأسى الواقع على المجتمع فيقارن بين نقيضين هو أحد اركانهما، فيصف أن نجمه قد غاب بعكس ممدوحه وهو بادٍ طالع كذلك يشكو الدهر بأن رماهُ بسهم وهذا السهم هو من كيد الوشاة والغاوين . كل هذه الأحداث أخرّت عجلة حياته حتى أنقلب سعيه إلى ترياق يفيد الآخرين ولا يستفيد منه كما في قوله :.

أيَغْرُبُ عندك نَجمُ اغتـرابي ومطلَعـهُ لك في الأَرضِ بادِ

وأسُقي الورى عَنك ماء الحياةِ وأرشفُ منك حَميءَ الثـماد
وزَرْعيَ فيكَ حَصيدُ الخلـودِ وحظّيَ منك لَقيطُ الحَصـادِ
سداداً من العَوزِ المُستجـارِ وأكثرُهُ عَوَزٌ من سَــدَادِ
كعِلمِك من خَطبِ دهرٍ رمانـي بأسهُم واشٍ وغاوٍ وعـادِ
يَسُلُّون بين الأماني وبينـي سيوفَ القلى ورماحَ البعـادِ
زمانٌ كأنْ قَدْ تغذّى لِسعِـيٍ لعابَ افاعٍ وحيـاتِ وادِ[٢١]

عندما عاش شاعرنا في ظل التجيبيين وكان (يحيى بن منذر) قائماً بالأمر استعطفه ابن دراج وأراد ان يقسم له سهماً من أموال الدولة يعتاش عليه ويسد رَمق عائلته حيث بلغه الكبر وشردته الفتنة وبدأ قصيدته هذه باستفهام إنكاري، وأراد أن يقول كيف يغيب عن الأمير نجم الشاعر وهو واضح يعرفه القاصي والداني، ثم بعدها يبدأ باللوم والعتاب والزمان الذي أودى به إلى هذا الحال، ولكنه لا يجد آذاناً صاغية من قبل الأمير. والأدهى من ذلك تعرض الحساد له حتى شبَههم بالافاعي والحيات التي تريد أن تنال منه.

وهكذا بقي شاعرنا يندب حظه العاثر أمام كل أمير وحاكم، ثم نجد أبياتاً أخرى لابن دراج يكثر الحديث فيها عن قلقه وضياعه في بلاد الأندلس نتيجة ظروف الفتنة التي اجتاحت البلاد وغيرت أحوالها من نعيم إلى بؤس وشقاء وكان شديد الحساسية لأنه عاش سنينه الأولى في مجد الدولة العامرية في نعيم القصور ورفاهية العيش، ثم ضاع ذلك المجد في ظروف الفتنة ومن طبائع ابن دراج إنه يمدح الأمراء ويشكو همه إليهم ولكن في هذه المرة وصل به الأمر أن يشكو حتى للوزير عيسى بن سعيد، يقول.

أقّر عيونَ الشامِتينَ وليَتـني أبرِّدُ ما تطوي الضلوع من الغِلِ
أمرُّ بهم القى الثرى وكأنـما فؤادَيَ من أحداقِهِم غَرَضُ النّبلِ
إذا الأَسد الضرغامُ أنَفَذ مقتَـلي فَمَا فَزَعي إلا إلى الأرقم الصـلِّ
وإن ذاب حُرّ الوجَه من حَرِ نارهم فما مُستغاثي منهُ إلا إلى المُهـلِ
ومن شِيمة الماء القَراحِ وإن صفا إذا اضطَّرَمتْ من تحته النَّارُ أنَ يغلي

ولا وزَرٌ إلا وزيـــرٌ له يَدٌ تُملُّ على أيدي الربيع فيَستملي
أبا الاصبغ المَعنيّ هل أنت مُصرِخي وهل أنت لي مُغنٍ وهل أنت لي مُعْلِ
عسى مجدُ عيسى أن ينوءَ ببارقٍ يُسحُ حَيا الإفضال في روضةِ الفضل[٢٢]

تعد الشكوى من الزمان وسوء الحال من أبرز ظواهر شعر الفتنة وقلّما نجد شاعراً لم يطرق هذا اللون من الشعر نتيجة قسوة الحياة واضطراب الأوضاع السياسية والثقافية والاجتماعية لهذا دب في المجتمع الحقد والحسد بسبب الاوضاع الفاسدة، لذا نجد شاعرنا يشكو في قصيدته من الشامتين، وقد تَعرضوا له أيام المنصور واتهموه بانتحال الشعر، وبوصفهم كصل الأرقم ونرى أن الهموم كثرت وأثقلت كاهله وأصبحت معاناته متعددة الاطراف. منها الفتنة التي شردته عن قرطبة والأخرى ملاحقه الحساد والمناوئين له، فماله إلا أن يستصرخ الوزير عيسى بن سعيد ويستجير به من ملمات الحياة، ويخفف عنه ويُهون عليه المصائب ويكون سنداً له فإنه كريم يسح ويعطي الخير كما يسح الماء ويسقي الروض والزهر، معلقاً آماله على تلك العلاقة التي كانت تربطه برجال الدولة العامرية[٢٣]، وهنا حاول الشاعر ابن دراج أن يؤثر في طرح شكواه لا على شرح حالة فقط؛ وإنما مزج ذلك بذكر حال أهله وبناته بعد أن فقدن قدرة معيلهن على تأمين احتياجات العائلة، فجاءت شكواه معبرة عن وصف حال العائلة قبل الفتنة حيث كانوا ينعمون بالخير في ظل القصور العالية والحال المزري الذي وصلوا اليه بعد سوء الأوضاع في شتى الميادين، وهنا يسأل شاعرنا الوزير القاسم بن حمود أن يكتب إلى أخيه (علي بن حمود)[**] بـ (سبته) متمنياً أن يحصل منه شيئاً يسد به نفقات عائلته الحزينة، ويصور ما حل به وبأسرته من أهوال الفتنة وتداعياتها بأسلوب ينبض بالألم والحزن قائلاً :

في سِتَةٍ ضعُفوُا وضُعِف عَدهُم حَملاً لمبهورِ الفؤادِ مُبلدِ
شدَّ الجلاء رِحالهُم فتحمَّلت أفلاذَ قلبٍ بالهُموم مُبددِ
وحَدَتْ بهم صعَقَاتُ رَوْعٍ شَرَّدتْ أوطانَهُمْ في الأَرض كلَّ مُشردِ
لا ذَاتُ خدْرِهمُ يُرامُ لِوجَهها كنٌ ولا ذو مَهْدِهِمْ بممَهد

عاذُوا بلمَع الآلِ في مَدّ الضُّحى من بَعد ظِلٍّ في القُصورِ مُمـدَّد
ورَضُوا لباسَ الجُودِ ينهكُ منهُمُ بالبؤسِ أبشار النعيمِ الأرَغَـدّ
ولَنِعم جَبْرُ الفَقْر من بَعد الغنى والذلّ بَعد العِزّ آلُ مُحَمَـدِ[٢٤]

ولم يكن شاعرنا ابن حزم الأندلسي (ت٤٥٦هـ) بعيداً عن ابن دراج من حيث الترحال والتشرد والضياع بين مدن الأندلس، وكثرة حسَّادهُ، لأنه تبوأ مكانة علمية مرموقة ويقول الشعر على البديهة وأسس المذهب الظاهري وكان حريصاً عليه ويدافع عنه، ويظهر أن العداء الذي أبتلى به ابن حزم قد اتسع حتى شمل بعض أفراد أسرته، فقد ناصبه العداء ابن عمه أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم وكان حرياً به أن يقف إلى جانبه في محنته، ولكنه آثر أن يعين الزمان عليه بدلاً من أن يعينه على الزمان[٢٥].

وهكذا تقلبت حياته بَين حربٍ وجدال وخصام مع معاصريه، متحسراً مستغرباً هذه الحالة التي حزت في نفسهِ وأورثته المرارة وسوء الظن بالناس لذا جاء قولهُ :

إني لأعجبُ من شَأني وشَأنهُم واحسرتا إنني بالناس مُمتحنُ
ما إن قَصدتُ لأمرٍ قَط أطلبـهُ إلا وطارتْ بهِ الاضعان والسفنُ
أما لَهم شغل عني فَيشغلـهم أو كُلهم بي مشغول ومرتـهنُ
كأن ذكرِي تَسبيح بهِ أُمروا فَلَيسَ يَغفل عني مِنهم لَسـنَُ[٢٦]

وكان طبيعياً أن يتصدى الفقهاء بقوة لابن حزم، لأنهم ضاقوا به وسخطوا عليه ولم يتحملوا أفكاره وآراءه، فعمدوا إلى استعداء الحكام عليه واستصرخوا علماء الأمصار ضده واستطاعوا أن يثيروا حفيظة المعتضد بن عباد نحوه حتى أحرق مصنفاته أمام الملأ من أهل (أشبيلية) لأرضاء الفقهاء، وقد أثرت هذه الأفعال في نفس أبن حزم، وكل هذا من إرهاصات الفتنة التي أثرت على نفوس وأخلاقيات المجتمع الأندلسي؛ لأن الفترة التي عاش فيها أبن حزم كانت بمثابة فترة إنتقال من عهد الخلافة الأموية إلى عهد حكم الطوائف، فلم يكن من الغريب عليه أن يتأثر في تفكيره وأسلوب حياته بما أعتور بلاده من تقلبات وما أختلف عليها من أحداث[٢٧].

وهكذا وجدنا الشكوى ظاهرة عامة على ألسنة الشعراء في أي موضوع يتناولونه سواء كان الموضوع مديحاً أو وصفاً أو أي غرض آخر فلم يجدوا رحمة من ذلك الزمن ولا من قومهم وأبناء جلدتهم حباً أو تقديراً لذا جاء شعرهم صرخة مدوية بعيدةً عن الصنعة والتكلف، وكان ذلك بسبب تغير المقاييس وكثرة الانقلابات السياسية وتغيّر الأحوال بين ليلة وضحاها.

لذا نقول أن الشكوى أصبحت بلا شك ظاهرة أندلسية قد لا يكون لها مثيل في المشرق الإسلامي، وقد لاحظنا تعدد صور الشكوى لدى شعراء الأندلس عصر ذاك فقد تأتي الشكوى من ضعف الجسم أو الهرم والشيخوخة أو سهر الليل أو صعوبة عيش، أو فراق حبيب.

ففي حالة شكوى الفراق نجد المعاني تجنح نحو تصوير الحسرة والأسى المبالغ فيه وتميل إلى الرقة في التعبير بألفاظ محببة إلى النفس لأنها صادقة شعورياً وتعبر عن ذات الإنسان بعيداً عن المبالغة وقد صور لنا ابن حزم الفراق بشكواه قائلاً:

متى تشتفي نفس أضربها الوجدُ وتصقب دار قد طوى أهلها البعدُ
وعهدي بهندٍ وهي جارة بيتنا وأقرب من هندٍ لطالبها الـهَندُ
بلى إن قرب الديار لراحـة كما يمسك الظمآن أن يدنو الوردُ[٢٨]

يشكو شاعرنا من الوجد الذي أتعبه وأضناه،ولكن البعد قد نأى بأهلها وأبعدهم وكانت هند جارة البيت واضحت أبعد ما يكون فهي بعيدة كبعد الهند عن تلك الديار. يرجع ويقول إذا كانت الديار قريبة فيطمئن العطشان ويحس ان الماء قريب منه. وهذه مناجاة لحالة عاشها الشاعر حيث عبر عنها بصدق مستخدماً الكنايات للتعبير عن آلام البعد والغربة النفسية والمكانيه لدى الشاعر.

لم تكن غربة ابن دراج ومأساته ناجمتين عن حرصه على نفسه فحسب وإنما لتعلقه الشديد بزوجته وأولاده تعلقا استحق معه أن يكون (شاعر الأسرة) أو شاعر (الحب الأسري)[٢٩] وإذا كانت المصادر التأريخية تصف لنا ما حصل بالشعب الأندلسي من قتل ودمار ورعب وهجرة قسرية، فإن ابن دراج سجل لنا كل ذلك من خلال حديثه عن اسرته

التي تكوّن شريحة اجتماعية أصابها ما أصاب الشعب العربي في تلك الفترة ولكنها وجدت من يسجل معاناتها وعذابها إبان الفتنة العمياء فعندما عصفت الأحداث بالناس وشردتهم عن أوطانهم وتخلى الصديق عن صديقه والمعيل عن العائلة وتخبط الحكام تنافساً وأقتتالاً واسرفوا في غيهم وبطشهم وجد ابن دراج نفسه وحيداً لتحمل المسؤولية، فهزته المأساة حتى بلغ مرحلة اليأس وهو يرى أن هذا الأنقلاب أصاب عائلته في الصميم حيث بات الجوع والخوف والمرض مهدداً لها بالموت في بداية كل لحظة.

وقد عبر شاعرنا عن معاناته ومعاناة ابنائه وزوجته وجاء شعره نابضاً بالصدق والحرارة والعفوية، فضلاً عن رقة وسهولة في التعبير : كقوله :

ولا كَبَني سبيل شرّدَّتـهُم عن الأوطانِ قاضَيةُ القضاء
عواصف فتنةٍ غَمتْ بـغيم بوارقُهُ سُيُوفُ الإْعتـداءِ
فأصعقهُمْ براعِدةِ المـنايا وأَمْطَرَهُمْ شآبيب الفناءِ
وطاف عليهمُ طوفان رَوْعٍ افاضَ بِهِمْ إلى القَفْرِ الفضاء
سهامُ نَوىً إلى برٍّ وبـحرٍ وأغراضٌ لنُشّابِ البلاء
وحمر الموتِ مِن خُضْرِ المغَاني وسُود البيدِ من بِيضِ المُلاءِ
وألبسَهُم ثيابَ الذلّ خـطبٌ يَلِيهم في ثيابِ الكِبرِياءِ
وأُلحَقَهمْ بلجِ البحر سـيلٌ يَمُدُّ مُدَودَهُ فيضُ الدِّماءِ(٣٠)

عندما عصفت الفتنة بقرطبة وشردت الناس عن وطنهم، بقي شاعرنا أيضاً مشرداً جراء هذه العاصفة التي شهر الأعداء سيوفهم للقتل والترويع، وهذا الروع قد إثار أحساس الشاعر وراح يعقد مشابهة بين البحر الاعتيادي والبحر الغارق بالدماء ويصف لنا حالة الذل بعد العز، وأصبح الشاعر في صراع نفسي بين الافتخار بالقوة والزهو بشجاعته وبين الشعور بالضعف والحنين الذي يفقد النفس توازنها ويسلمها إلى البكاء ويستعين بإسلوبه الشعري الحزين الذي نجد فيه صدق المشاعر والأحاسيس التي تحمل جزء من هذه الغربة المؤلمة.

ويلح الشاعر ابن دراج على مبدا التضحية معلناً أنه سيكون معوضاً لأبنائه عن كل ما يعانون منه، من بعد عن الوطن، وقساوة الناس وفقدان الامن قائلاً :

وان ضاق رحب الارض عن مُنْتَوَاهُمُ فَرَحب لَهُمْ ما بين سَحْري إلى نَحّري
وان تَقْسُ أكبادٌ كِرامٌ عَلَيْـــهِمُ فواكَبدي مَمن تَذُوبُ لهُ صَخـرْي
وإن تَبْرِمِ الأيسارُ في أزَمَاتهــمْ فأجِبْ بأيْسارٍ قَمرْتُ لُهُمُ يُسـري
ففازوا بنَفْسي غَيْرَ جُزْء ذَخَرْتــهُ لما شَفَّ من خَطْب ومامسَّ منْ ضُرّ
فَعَفْوٌ لَهُمْ جَهْدي وخُلقٌ لَهُمْ مُـريّ وصَفْوٌ لَهُمْ طرفي ويُسْرٌ لَهُم عُسري[٣١]

يعلن شاعرنا من شدة عطفه وحنانه على أولاده بقوله إذا ضاقت الأرض الواسعة عليهم فأفتح لهم صدري الرحب ليسعهم وهو المكان الدافئ الذي يؤويهم وهذا ناتج من شدة حرصه وحبه لهم، ثم يعلن إذا قسى عليهم أحد من الناس فأن كبد شاعرنا يذوب لهم حناناً حتى لو كان من صخر وهذه مبالغة اعتمدها الشاعر في شعره، وشاعرنا يقدم كل ما بوسعه لهم فلا يذخر شيئاً وهو يقدم لهم كل شيء بوسعه ولا يبخل عنهم بشيء ويسهل لهم كل الصعاب ليعيشوا عيشة راضية كما يتمناها لهم. ولا يملك الشاعر أحياناً إلا نفسه يقدمها لهم، وصدره يحنو عليهم يوم تضيق صدورهم، وكأنه بذلك يعترف بأنه معاق تحكمه ظروف خارجة عن ارادته فيفشل في تحقيق بطولة التضحية، وكلما فشل غير سيرهُ، فأعتاد الارتحال وعاش نتيجة لذلك في اضطراب وحيرة وقلق . ويسرف ابن دراج في وصف أثر الفتنة على أبنائه وما واجهوه بعد ذلك ويكرر المعاني ذاتها بصور ختلفة وقد لاحظ الدكتور احسان عباس تعلّق ابن دراج بالصورة الواحدة والتعمق فيها[٣٢].

٣. الشكوى الثقافية

ومن الشكوى الثقافية وسوء الحال التي عاش احداثها الشاعر صاعد البغدادي (ت ٤١٧ هـ) بعد زوال مجد الدولة العامرية في قرطبة، إذ انه عانى من شظف العيش وكساد بضاعة العلم وضياع الادب[٣٣]، وانتهى به الحال الى ان اغرم بمئة مثقال

فاستغاث علي بن وداعه احد الفرسان الابطال ونُبهاء الدولة آنذاك اثناء الفتنة، فكتب اليه قطعة نثرية، يمدحه فيها ويصف شمائله الطيبة، ولم يكتف بالنثر، وقال شعراً منه :

أبا حسنٍ ربيعة من سُليمٍ سنانٌ زان عالية الرمـاحِ
واني عائذٌ بك من هناتٍ نحتنَ دعائمي نـحت القداحِ
فكر على ابن عمك وانتشله فليس حمى ابن عمك بالمباحِ[٣٤]

ويعلّق ابن بسام بقوله : (فما انتفع بعلي بن وداعه ولا كانت له فيه شفاعه، وزاد ارتجاج الفتنة بغلاء السعر ورخص الشعر)[٣٥].

أن الحياة الثقافية في الاندلس على الرغم مما تحلت به من رفاه في بعض الأوقات فإن الاضطراب وعدم الاستقرار ولاسيما في عصور الفتن والحروب الداخلية والخارجية كانت السمة العامة لها مما كان له الأثر البالغ على شكل الحياة وانعكاسها على شخصية الشاعر الاندلسي. وأشد الشكوى إيلاماً في الاندلس تلك التي تحمل طابع الفساد الثقافي، وخلو الساحة الأندلسية من أناس يقدّرون العلم والعلماء وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها فيجد العالمُ أن عمله الذي اكتسبه بالجد والسهر والمثابرة يجلب له المتاعب ويؤدي به إلى المهالك.

لهذا نقول أن للفتنة أثراً واضحاً على الناحية الثقافية إذ توقف الانتاج الثقافي، أو تعثر سيره على أحسن الاحتمالات إذ ليس باستطاعة أديب أو عالم انتاج شيء في ظل تلك الازمات والانقلابات لذلك تعطل النشاط الثقافي لا سيما في قرطبة، (فقد كانت هناك بقية من العلماء الأندلسيين الذين أدركوا الازدهار في فترة الخلافة . أو انتفعوا بقوة الدفع في فترة الحجابة . فحفظوا للأندلس كثيراً من علمها وتراثها رغم ماكان من فتنة مبيرة)[٣٦]. ويبدو أن في فترة الفتنة التي استمرت حوالي ربع قرن من الزمان كان تأثيرها جلياً على الأدب الأندلسي. فانتشرت أغراض جديدة منها أدب اللهو والنفاق أو أدب الهروب. ولكن بالاتجاه الآخر ظهر أدب التأمل والنقد كما هو لدى ابن شُهيد وابن حزم.

ويبدو لنا كذلك ضعف الأغراض الشعرية ومنها الوصف الذي اشتهر به الأندلسيون في فترة الازدهار والرُقي. لذا ساهمت الفتنة في تعطيل الدور الريادي وايقاف

عجلة الثقافة والأدب ولاسيما لدى الخلفاء. ومنهم المستعين الذي كان يقرض الشعر ويهتم به وله قصيدة ذكرها ابن الأبار[٣٧]، وكذلك الخليفة المستظهر أيضاً كان له نفس الاهتمام ومن أثر الفتنة على الحياة الثقافية ما يصفه لنا الشاعر الأديب أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الحناط (الكفيف)[***] الذي قال عنه ابن بسام في الذخيرة (أنه زعيم من زعماء العصر – ورئيس من رؤساء النظم والنثر)[٣٨]، وفي هذه الأبيات يصف لنا حال الأدب في حقبة الفتنة، قائلاً :

لم يخلُ من نُوب الزمان أديبُ ... كلاً فشأنُ النائبات ينوبُ
أُمسي قراراً للخطوب وأغتدي ... غَرضاً تُفوّقُ نحوه فتُصيبُ
وإذا انتهيت إلى العلوم وجَدتها ... شيئاً يُعَدّ به عليك ذنوبُ
وغَضَارةُ الأيام تأبَى أن يرُى ... فيها لأبناء الذَّكاء نَصيبُ
ولذاك من صَحِبَ الليالي طالباً ... جَدَّاً وفهماً فاتَّهُ المطلوب[٣٩]

عمت الفتنة كل شيء في حياة المجتمع الأندلسي وأثرت على واقعه الثقافي، فأصبح الأدب بائر السلعة، والشاعر يعيش في ضياع لا يوجد من يهتم بشعره أو آذان صاغية له، وخاصة في قرطبة، وذهب الناس أشتاتاً يلتمسون شيئاً من الأمن خارج قرطبة مسرح الأحداث. وبقي الأديب يشكو همومه حيثما كان واصبح العلم والأدب سُبةً على صاحبه. وضاع الذكاء والأذكياء وضاع نصيبهم فلم يصلوا إلى مرامهم ولم يحققوا آمالهم فمصائب الأيام ونائبات الزمان أصابت أدبائهم لأن أي ابداع يعني ذنوباً يعاب عليه الأديب. وضاع الشعراء في طيات النسيان.

ان الشعور الذي انتاب ابن الحناط، كان لدى شاعرنا نفسه أبي حفص ابن برد الأصغر[****] الذي مدحه ابن بسام في ذخيرته بأنه (فلك البلاغة الدائر، ومثلها السائر. نَفَث فيها بسحره. وأقام من أودها بناصع نظمه وبارع نثره)[٤٠]، ووصف ابن برد الحياة الثقافية بقوله (إن سوق الأدب قد كسدت وجمرةُ السلطان قد همدت، والعّي أمضى من البيان والاساءةُ أحمد من الأحسان، وأقلامنا يومئذٍ في عُطلةٍ ومحابرنا في عقله وكتبنا تحت موجدة)[٤١]، لذلك قال قصيدته المشهورة :

قَرعَنْا بالكتابةِ بابَ حظٍّ لنَدخُلهُ فزاد لنا انغلاقا
فلم تَبْلُغْ بلاغتنا منـاها ولا مَدَّ المدادُ لنا ارتفاقا
ولاَراحتْ تُقرطسُ بالأماني قراطيسٌ أجَدناها مَساقا
وقَلَمَتِ المطالبُ من حُدَاها لنا أقلامَنا ساقاً فساقا
فلا هَطلتْ على الآداب مُزّنٌ ولا بَرِحَتْ أهلتُها محاقا
وعَوَّضْنا بما ندريه جهلاً لعلَّ السّوقَ مُدركةٌ نَفَاقا(٤٢)

يبدو أن معنويات الشاعر عالية من خلال (قوله، (فما زلنا مع الخطوب مُساجلين، ولصروف الأيام مناضلين، فيوم لنا ويوم علينا حتى إذا أراد الله أن يحيى هذه الصناعة رسماً ويعيد لها دولة واسماً، ويرفع سائر العلوم من التخوم إلى النجوم وفنون الآداب من التراب إلى السحاب)(٤٣).

حاول شاعرنا جاهداً طرق أبواب المعرفة والعلم، والسمو بالأدب وصناعة الشعر والنهوض به إلى النجوم، ولكن تداعيات الفتنة عطلت دور الشاعر وغلقّت الأبواب بوجهه وخيبت آماله العريضة وقضت على طموحه، ولم يأخذ القلم والقرطاس دوره في تلك الحقبة، حيث أفلت نجوم العلم والمعرفة وحتى الهلال أفل ودخل المحاق، وساد الظلام والجهل آفاق قرطبة، واصبح الأدب تجارة كاسدة، ليس له سوق، وسلعة بائرة ليس لها مشترٍ، ولم ينطلق القلم من معقله ليأخذ دورهُ الريادي أنذاك.وأصبح الجهل هو البديل الوحيد لكل نهضة علمية أو أدبية،وكثر النفاق ليتفق مع الجهل ليقضي على كل فرصة تفيد المجتمع وتدفع عجلة التقدم إلى الأمام. ويبقى الأمل الوحيد لدى الشاعر هو أرادة الله أن يرفع سائر العلوم من التخوم إلى النجوم، وفنون الآداب من التراب إلى السحاب.

ومن اللافت للنظر أن الفتنة أصابت الثقافة بطعنة بليغة اخرتها عن استكمال بنائها الحضاري والثقافي زمناً طويلاً، لا سيما قرطبة التي فارقها أكثر علمائها وشعرائها بالهجرة إلى مدن أندلسية أخرى(٤٤) إن التخبط الذي عاشته الحياة الثقافية في عصر الفتنة متمثلة في شكوى الشعراء الذين واكبوا تلك الحقبة الصعبة، مما جعلتهم يتجهون بشكواهم صوب الشرق بسبب ضيق العيش وفساد الذوق العام لدى أمراء الأندلس الذين انزوى كل

واحد منهم بناحية من نواحيها، فهذا ابن دراج القسطلي يصرح بشكواه ويشير إلى ضِيق بلاد الأندلس على سعتها بشعره، كما جاء في قوله :

فإن غَّربت أرضُ المغاربِ مَوئلي وانكَرني فيها خَليطٌ وخلاَنُ
فكمْ رَحَّبتْ أرضُ العِراق بَمقدمي وأجزلتِ البُشرى عَليَّ خُراسانُ
وإن بلاداً أخرجَتْني لعُطَّلٌ وإن زَماناً خان عَهدي لخَوَّانُ
سلامٌ على الإخوانِ تَسليم آيسٍ وسقياً لِدهرٍ كان لي فيهِ إخوانُ[٤٥]

هذه الشكوى وإن كانت ذاتية في ظاهرها إلا أن المُطلع على هذه الحقبة لا يمكنه إلا أن يجعلها في اتجاه عام. وان الشعراء قد تأثروا بالفتنة لذلك عندما قال ابن دراج هذه الأبيات إنما هي نفثة ضاق بها صدره، وهو لم يرحل إلى أرض العراق ولكن عبر عن سخطه وضياعه في بلاد الأندلس على الرغم من صيرورة شعره وحفاوة بلاد المشرق به.

كذلك أدرك أبن دراج عظمة الفجوة بينه وبين أهل زمانه فعانى من ضيق العيش معهم وفساد الذوق العام وظلم الرعية من كل هذا قرر الرحيل إلى أرض العراق وكان له أمل كبير أن يُرحبوا به ويقيّموا أدبه[٤٦] وهذه شكوى لابن شُهيد يصف نفسه أنه يعيش في قرية الجهل وأن فهمه يجلب له الأذى والتعاسة، فضلاً عن هذا كله تعرض الحساد والمراقبين له، ولكنهم لن يثنوه عن عزمه ما دام في ظل آل هاشم الذين لن يهضموا حقه، ويعوضونه كل ما فقد، كما جاء في قوله :

أرى أعْيُناً ترنُو إليّ كأنّما تُساوُر منها جانبيَّ أراقِمُ
أدورُ فلا أَعْتامُ غَيرْ مُحارِبٍ وأَسْعى فلا أَلْقَى أمْرءًا لي يُسالمُ
ويجْلبُ لي فَهمي ضُرُوباً من الأَذَى وأشقَى أمْرئٍ في قَرْيةِ الجْهل عالِم
وأوْجعُ مَظْلُومِ لقَلْبٍ وذي حِجى فتى عَربيٌ تزدريه أعاجمُ
غَنيتُمْ، على ما تزعُمون، عن الورى لقد سَفِهَتْ تِلْكَ الحُلُومُ الزَّوَاعمُ
وهل يُقدم البازي على الطّيْر في الضُّحى إذا زالَ عن ريشِ الجناحِ القَوادِمُ
سَلامٌ عَلَيْكُم لا تِحيّةَ شاكِرٍ ولكِنْ شجىً تَنْسدّ مَنه الحلاقِمُ

وما قُرعتْ سِني عَليكُم نَدامــةً وأَوْشِك غَداً أن يقْرعَ السَنّ نـادِمُ
عليكُم بداري فأهدِموُها دعائــماً ففي الأرضِ بنَّاءونَ لي ودَعائِم
لئِن أخْرجْتني عنكُم شُرّ عُصبــة ففي الأرْضِ إخوانٌ عليّ أكـارِمُ
وإن هَشَمتْ حقِّي أُميَّةُ عِنْدهــا فهاتا على ظَهْرِ المحّجةِ هاشِمُ[٤٧]

عبّر شاعرنا عن رغبته في الهجرة إلى مالقة واللجوء إلى الخليفة يحيى بن حمود، ليتوسل إليه ويطلب منه وضع حد للفوضى في قرطبة فقال هذه القصيدة التي تحمل في ثناياها معاناته وهمومه.

كذلك من أسباب هروب الشاعر من قرطبة أن الخليفة محمد (الثالث) الذي وقف موقفاً معادياً للشعراء أمر بسجن صديقه ابن حزم وابن عمه فدب الذعر في قلب ابن شُهيد فقرر الهروب إلى مالقه، حيث لجأوا إلى حمى يحيى بن حمود[٤٨]

ولا نستغرب هذا الشيء لدى ابن شُهيد فقد كان أنساناً رقيق المشاعر، مفرط الحساسية، وأنه ليعجب من أهل زمانه كيف أصبحوا حساداً له يكيدون له المكايد ويحاولون الإيقاع به فعاش في جحيم من الألم والتشاؤم، ومن الأحساس بالتعاسة والشقاء، ففي الأبيات الأخيرة من القصيدة نفسها أشارات واضحة إلى الفخر بنفسه واعتداده بفضله وعزمه، إلا أن دلالتها السياسية واضحة فهي انحياز إلى العلويين بعد فقدان الأمل من الأمويين ولهذا يذكر آل هاشم، الذي ينتمي إليهم (المعتلي) يحيى بن حمود، كذلك وجود علاقة قديمة بينه وبين ابن شُهيد.

ومن اللافت للنظر أن شاعرنا يرفض الاقامة في قرطبة بعد أن أصبحت دار جهل وظلم، وقد قضى ابن شُهيد نصف حياته في عهد الفتنة فعاش بذلك أهوالها ومصائبها وهي فترة خطيرة من الزمان بالنسبة له، فقد بدأت وهو في حوالي الثامنة من عمره فواكبت شبابه المتفتح ونفسه المنطلقة، ومواهبهِ التي بدأت بالظهور بصورة واضحة.

ولشاعرنا ابن شُهيد في عتاب الزمان والشكوى منه وحين إذ كان قلبه معلّقاً بقرطبة لأنها هي المكان الأليف المحبب إلى قلبه ولكن المصائب والأحداث الموجعة

جعلته يغادرها قسراً نتيجة الصراعات السياسية الدائرة فوق أرضها ولهذا يشير في أبياته قائلاً :

وكَيف ارتِضائي دارةَ الجَهلِ منزِلاً إذا كانَتْ الجوْزاء بعْض منَازِلي
وصبْري على محُضِ الأذى من أسافِلٍ ومجْدِي حُسامِي والسَّيادة ذابلي
ولما طَما بحرُ البيانِ بِفِكرِتي وأَغْرقَ قَرْنَ الشّمْسِ بعْضُ جداولي
زَفَفْتُ إلى خَيْرِ الورى كُلَّ حُرّة مِن المدّحِ لم تَخْمُلْ برعي الخَمائلِ
وما رمتُها حتى حطَطْتُ رحالهاَ على ملك منهم أغرَّ حُلاحِل
وكِدْتُ لفَضْلِ القَوْلِ أبْلُغُ ساكِتاً وإنْ ساء حُسّادي مدى كُلَّ قائِلِ[٤٩]

يعتز شاعرنا بنفسه أيما اعتزاز ويفتخر بها ولا يرضى لها مكانةً في العلو والسمو إلا عند الجوزاء في أعالي السماء، هكذا يشعر، ثم يصرح بأثر الفتنة على روح البيان وتجاهل الحساد لأدبه وعِلمه، وماله من حيلةٍ سوى الصَبر على أذاهم وتداعياتهم وإسائتهم إليه ويزف هذه الآلام والضغائن إلى خير الورى محمد ﷺ هو الذي يستحق المدح والثناء وهو ملاذه الوحيد من ملمات الحياة التي حبست انفاسه وزادت همومه، ولم يجد طيبة للعيش في قرطبة، لكثرة الجهل والسفه، لذا قرر مع نفسه الرحيل عنها[٥٠].

وليس بغريب ان يكون اكثر الناس حسدا وحقدا على شاعرنا ابن حزم الأندلسي الذي نصب له روح العداء أقرب الناس إليه نسباً وهو ابن عمه (أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم) الوزير الكاتب الأديب وكان حرياً أن يفخر به، ولكن أعان الزمان عليه حقداً وحسداً وقد أجابه ابن حزم بقوله :

كفاني ذِكرّ الناس لي ومآثري ومالكِ فيهم يابن عَمي ذاكرُ
عدوي وأشياعي كَثيرٌ كَذاك مِن غَداَ وهو نفاع المساعي وضائرُ
ومالك فيهم من عدوٍ فيتقي ومَالك فيهم من صَدِيق يُكاثرُ
وقولي مسموع له ومصدقٍ وقولك مُنبت معَ الريح طائِرِ
وأني وان آذيتني وعققتني لمحتمل ما جاءني مِنك صابِرُ[٥١]

لقد تعرض اكثر شعراء الفتنة للعداوة والحسد حيث نرى أن الشاعر ابن دراج ظهر له حساد واتهموه بانتحال الشعر ولكنه نجح في الاختبار واثبت انه مبدع، وكذلك ابن شُهيد وحاله مع الحساد وهذا ما جعله يكتب (رسالة التوابع والزوابع) تناول فيها آراء نقدية متداولة آنذاك أما ابن حزم فقد شكا في هذه الأبيات من ابن عمه إذ أشار إلى شيوع ذكره الذي لا يجاريه أحد. وأبلغه بأنه يصبر على العقوق والجفاء لأنه عالم مشهور بين الناس وأن الناس يأخذون برأيه ويحترمون مكانته العلمية والأدبية ولا يأخذون برأي ابن عمه ويعدونه في منبت الريح لا قيمة له.

النتائج التي توصل اليها البحث

١. ان ظروف الفتنة التي عصفت بالعاصمة قرطبة كان تاثيرها على الحياة بشكل عام، وانها عطّلت حركة التطور والتقدم واصبحت قرطبة مسرحا للأحداث والصراع بين الجماعات المتنازعة. فضاع العلم والادب بهروب رجاله من قرطبة الى اماكن اخرى.
٢. جاءت شكوى الشعراء الاندلسيون كرد فعل للأحداث التي عاشوها، وكانوا شهودا عليها لأنها عبرت عن معاناتهم وآلامهم ومرارة الفوضى والاضطراب آن ذاك، وكان وصفهم دقيق لهموم شعبهم ايام الفتنة.
٣. ان تغير الاوضاع السياسية وكثرة الحكام على قرطبة، اذ حكمها في حقبة لا تتجاوز ربع قرن ثلاثة عشر حاكما وهذا مما أدى الى انتاج الوانا كثيرة من الادب يظهر فيها الاسراف وتمجيد الحاكم او الخليفة بعيدا عن الصدق الشعوري.
٤. ان اكثر الشعراء تاثرا باحداث الفتنة هو الشاعر ابن دراج القسطلي (ت ٤٢١هـ) ولهذا نجد في كثير من قصائده شكوى واضحة عندما يمدح او يصف.

الهوامش

(١) لسان العرب : مادة (شكا).
(٢) القصص القرآني في الشعر الأندلسي، ٢٠٨، د. أحمد حاجم الربيعي :.

(٣) ينظر، محاضرات الادباء ومحاورة الشعراء والبلغاء، أبو القاسم الراغب الاصبهاني، ٢ /٤٣٨.

(٤) ينظر النقد الأدبي، محمد غنيمي : ٦٦.

(٥) ينظر تأريخ الشعر السياسي، أحمد الشايب : ٢٧٠.

(٦) الأسس النفسية للأبداع الفني في الشعر خاصة، د. مصطفى سويف : ٤٣٠.

(٧) ينظر : التوجيه الأدبي، د. طه حسين وآخرون : ١٢.

(٨) ينظر : البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف، سعد إسماعيل : ١٤.

(٩) ينظر : أسس النقد الأدبي، د. أحمد بدوي : ٣٦.

(*) هو محمد بن هشام بن عبد الجبار (المهدي) الذي ثار على عبد الرحمن بن المنصور (شنجول) (سنة ٣٩٩هـ) معلناً نفسه خليفةً للمسلمين، ولكنه غدر به وقتل سنة ٤٠٠هـ ديوان ابن دراج هامش ص/٤٣.

(١٠) ديوانه : ٤٥.

(١١) ديوانه : ١٩٣.

(١٢) م. ن : ١٤٩.

(١٣) ينظر : ملامح الشعر الأندلسي، ١٠٢.

(١٤) ديوانه : ١٥٩.

(١٥) ينظر : مقدمة ديوان ابن شُهيد : ١٩.

(١٦) ينظر : مطمح الأنفس، ابن خاقان : ١٩.

(١٧) ينظر : مقدمة ديوان أبن شهيد : ٣٠.

(١٨) ديوانه : ١٠٠.

(١٩) الشعر في قرطبة ١٤٦.

(٢٠) ينظر : الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة : ٣٤٩.

(٢١) ديوانه : ٢٤٤.

(٢٢) ديوانه : ٤٠.

(٢٣) ينظر : تأريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) : ١٩٦.

(**) هو علي بن حمود بن ميمون الأدريسي الحسني ولد ٣٥٢هـ وهو من زعماء الحزب البربري وظل في سبته حتى عام ٤٠٥هـ وتوفي سنة ٤٠٨هـ، ينظر : تاريخ اسبانيا الاسلامية، ليفي بروفنسال، ٢ : ٣٢٣ و (هامش صفحة ٦٤ ديوان ابن دراج)

(٢٤) ديوانه : ٦٣.

(٢٥) ينظر : ابن حزم الأندلسي ورسالة المفاضلة بين الصحابة، سعيد الافغاني : ١٣٦.

(٢٦) شعر ابن حزم الاندلسي، القسم الخامس، تحقيق: عبدالعزيز ابراهيم، المورد مج٢٨ ع١ ٩٩.

(٢٧) ينظر : تأريخ الفكر الأندلسي، أنخل بالنثيا، ترجمة د. حسين مؤنس : ٧٤.

(٢٨) طوق الحمامه : ٩٨.

(٢٩) دراسات أدبية، د. أحمد هيكل :٢٦٠.

(٣٠) ديوانه : ٢٧٢.

(٣١) ديوانه: ١٥٩.

(٣٢) ينظر : تأريخ الأدب الأندلسي : (عصر سيادة قرطبة) ٢٦٣.

(٣٣) ينظر : اتجاهات الشعر الاندلسي في عصري الحجابة والفتنة، ابراهيم عبد وهيب،٢٢٠ اطروحة دكتوراه، ١٩٩٦

(٣٤) الذخيرة، ق٤، م١ : ٥٣ – ٥٤.

(٣٥) م. ن : ٩٤.

(٣٦) الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة : ٣٥٠.

(٣٧) الحلة السيراء، ابن الابار ٩/٢.

(***) أبو عبد الله محمد بن سليمان الحناط. كان متقدماً في الأدب والبلاغة والشعر توفي قريباً ٤٣٠هـ، المغُرب ١: ١٢١ ويقول ابن حيان توفي هذا الشاعر سنة ٤٣٧هـ، الذخيرة ق١م١/٤٣٨.

(٣٨) الذخيرة ق١م١/٤٣٧.

(٣٩) م. ن، ٤٤٨.

(****) هو الوزير الكاتب أبو حفص بن برد الأصغر. ترجم له الحميدي في الجذوة ص١٠٧ وقال أنه رآه بالمرية بعد ٤٤٠هـ.

(٤٠) الذخيرة، ق١ م١ : ٤٨٦.
(٤١) م. ن، ٤٨٦.
(٤٢) م. ن : ٤٨٨–٤٨٩.
(٤٣) الذخيرة، ق١ م١ : ٤٨٩.
(٤٤) ينظر : الشعر العربي في الأندلس، كرتشوفسكي، ترجمة محمد منير موسى : ٧١.
(٤٥) ديوانه : ٧٥.
(٤٦) ينظر : المكان في الشعر الأندلسي، من الفتح الى سقوط الخلافة، محمد عبيد صالح، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة الانبار، ٢٠٠٥ غير منشورة : ١٣٧.
(٤٧) ديوانه : ١٥٣.
(٤٨) ينظر : مقدمة ديوان أبن شُهيد : ٤١.
(٤٩) ديوانه : ١٤٤.
(٥٠) ينظر : مقدمة للشعر العربي، علي أحمد سعيد : ٣٨.
(٥١) طوق الحمامة : ٧٤ ٠